

جامعة محمد بوضياف - المسيلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

محاضرات في مادة الشعر العربي المعاصر

إعداد الأستاذ: ناصر بركة

توطئة:

هذه المحاضرات في الشعر العربي المعاصر موجهة إلى طلبة السنة الأولى (ماستر) تخصص أدب حديث ومعاصر ، وقد روعي في إعدادها والتخطيط لمضمونها أمران أساسيان؛ أولهما طبيعة المادة بوصفها سداسية من حيث إطارها الزمني، وثانيهما المكتسبات القبلية لطالب الماستر الذي يُفترض أنه قد تكوّن لديه ملمح معرفي إزاء المادة المستهدفة ونماذجها التمثيلية، لذا انصب الاهتمام في مرحلة الإعداد على محاولة تعميق الملمح سالف الذكر دراسة وتحليلاً، وفسح المجال للطالب كي يطلّع على مصادر هذا الشعر بما هو نسق متفاعل لمّا يزل في حالة من السيرورة الزمنية والتحوّلات الفنية التي تطبع شكله ومضمونه. ولقد كان من الطبيعي والحال هذه أن تتم إحالة الطالب تمثيلاً وتوضيحاً على المصادر التي تتمظهر فيها المحاور المتعلقة بالمادة، وهي على تمددها المعرفي مقرونة من حيث انتمائها وعلائق تأثيرها وتأثيرها بأنساق قرآنية وسوسيوثقافية معقدة تتطلب استيعاب المنجز الشعري المعاصر ومراعاة خصوصياته الفاعلة.

المحاضرة الأولى: لغة الشعر المعاصر وجمالية التوظيف

توطئة:

تمثل اللغة نشاطاً رمزياً "يعبر عن بقية الأشكال الرمزية المختلفة للثقافة؛ إنها الوسيلة المثلى الحاملة للمعنى، والدلالة عن هذه اللغة تخضع دائماً لصراع قوى التقليد والتجديد، وتمثل في جميع الثقافات [...] قوة محافظة في الثقافة الإنسانية؛ لأن من دون طابعها المحافظ هذا لا تستطيع أن تؤدي وظيفتها التواصلية"⁽¹⁾. ويرى نعوم تشومسكي في هذا الصدد أن اللغة البشرية تمتاز بعدد من الخصائص؛ منها الازدواجية التي تشير إلى أن اللغة تنبني على مستويين أساسيين: أولهما: **المستوى التركيبي**، ويتضمن العناصر ذات المعنى التي تترابط معاً لتؤلف الجمل في السياق الكلامي، وثانيهما **المستوى الصوتي** وتتضمن الأصوات والمنطوقات، فضلاً عن خاصية التحول اللغوي؛ الذي يشير إلى قدرة الإنسان على استخدام اللغة للتعبير عن الأشياء والأحداث عبر الأزمنة والأمكنة المختلفة⁽²⁾. أما خاصية الانتقال اللغوي فتشير إلى "عملية انتقال اللغة من جيل إلى آخر؛ إذ تكتسب وفق عمليات الارتقاء اللغوي، وتتطور لدى الأفراد طرائق التعبير اللغوي وتركيب الجمل وإدراك المعاني وفق تسلسل منظم، وهناك خاصية الإبداعية اللغوية؛ فاللغة نظام مفتوح يتيح للأفراد إنتاج عدد غير محدد من الجمل والتراكيب اللغوية والإبداع في مجال استخدام اللغة، للتعبير عن الفكر والمشاعر والاتجاهات والمعتقدات والأشياء"⁽³⁾. ويركز تشومسكي في معرض آرائه اللسانية على ما سماه بالكفاية اللغوية؛ القائمة مفهوماً على "معرفة حدسية تتمثل في وجود قواعد واضحة ومنظمة في الذهن، بشكل فطري تعطي للذات المتكلمة قابلية إنجاز ملفوظات في لغتها الأم كما في لغات أخرى، أما

(1) الزواوي بغورة: الفلسفة واللغة، ط01، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 2005، ص81.

(2) ينظر: رافع النصير الزغول، عماد عبد الرحيم الزغول: علم النفس المعرفي، ص252.

(3) المرجع نفسه، ص252.

الإنجاز فهو التحقق المجسد لهذه الكفاءة الكونية؛ من خلال ملفوظات في لغة معينة" (1) دالة على حيوية هذا النظام ونشاطه.

وتستند هذه الكفاية في نطاقها الأدائي على "قدرات الشخص اللغوية، ويمثل هذا المفهوم في الواقع العوامل اللغوية الصرفة؛ التي تتداخل في أفعال الكلام أو الأداء اللغوي" (2)، وهذا ينطبق على الاستعمالات اللغوية العادية في حدودها الإفهامية؛ فالإنسان عطا على هذا الرأي يستعمل "اللغة لتنظيم تصرفاته الخاصة، كما يستعملها أيضا لوصف عالمه الداخلي؛ الذي يتكون من ظواهر ما تزال غير مصنفة تصنيفا حسنا ولا محددة تحديدا دقيقا، هذه الظواهر التي تصفها التعابير التقليدية مثل الإحساسات والمشاعر والأفكار والصور العقلية" (3).

هو النظر إذا إلى اللغة بوصفها نشاطا للكائن الإنساني وحقيقة اجتماعية، و"ملكة ترتكز على قوة الطاقة الكامنة في الذات الإنسانية، وحين تتحدد قواعدها نظاما واستعمالا تصير نتاجا جمعيا على مستوى الأمة الواحدة" (4)، فهي احتكاما إلى هذا الرأي وسيلة تلتفت الانتباه إلى ما تشير إليه، وتضطلع بأداء وظيفة تواصلية أساسية ضمن المؤسسة الاجتماعية الواحدة، كما توفر للمرء إمكانية التعبير عن أحاسيسه ومشاعره (5). لكن ماذا لو خرجت اللغة عن حدود استعمالها العادية؟ متجاوزة إياها إلى مستوى آخر موصول بالإبداع الفني؟ وما علاقة هذا بالانزياح بملكة التنوع لدى المبدع؟

إن الأدب كما يراه تودوروف "يتمتع بامتياز فريد بين الفعاليات الإشارية الأخرى واللغة بالنسبة إليه هي المبدأ والمعاد، هي نقطة انطلاقه ونقطة وصوله على السواء، اللغة تضيف عليه صيغتها المجردة كما تضيف عليه مادتها المحسوسة [...] ومن هنا فإن الأدب

(1) عبد الواحد المرابط: السيميائية العامة وسيميائية الأدب، ط 01، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2010، ص48.

(2) مارك ريشل: اكتساب اللغة، تر: كمال بكش، ط01، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، لبنان، 1984، ص14.

(3) المرجع نفسه، ص189.

(4) عبد القادر عبد الجليل: الأسلوبية وثلاثية الدوائر العروضية، ط01، دار صفاء، عمان، الأردن، 2002، ص195.

(5) -André Martinet: Eléments de linguistique générale, Armand colin, Paris, 4ème édition., 2eme tirage, 1988, p9

ليس مجرد الحقل الأول الذي يمكن دراسته ابتداءً من اللغة؛ بل إنه الحقل الذي يمكن لمعرفته أن تسلط ضوءاً جديداً على خواص اللغة نفسها" (1)، بوصفها خبرة تحقق للمتكلم كينونته، بما تملكه من طاقة استيعابية، فتخرج من المستوى التخاطبي إلى المستوى الجمالي.

والنص المكتوب بامتلاكه تلك الطاقة يحدد إنتاجه وتلقيه من جهة، ويتميز بانغلاقه الشكلي (بداية ونهاية) من جهة أخرى، إنه توسيع بهذا المعنى للجملة، والفضاء النصي الموجود بين حدوده الشكلية يجعله مبنياً إلى فقرات وأجزاء ووحدات قابلة للتجزئة (2) بما له من امتدادات داخلية ماثلة في بعده الخطي، وأخرى ذات امتدادات خارجية واقعية وإيديولوجية، تغدو فيها اللغة وقواعدها محل اهتمام المؤسسات الاجتماعية والتربوية والثقافية، وبالنسبة للغة العربية "فإنها، على الرغم مما عرفته من تطور وتحوير بابتعادها عن محيطها اللغوي الأول جغرافياً، والذي مسّ بنيتها الصوتية والتركيبية والمعجمية، باختلاف المناطق التي تتحدث العربية في التواصل اليومي؛ فإنها مع ذلك ظلت قواعدها وضوابطها وقيمها الكتابية مهيمنة ومستمرة" (3). وبالنظر إلى البعد الخطي في النص؛ نجد الكلمات تتوالى في الجملة على نحو منتظم، يخضع ترتيبها لأنساق تركيبية مطّردة، وعلامات داخلية معقدة تشكل في مجموعها قواعد التركيب النحوي في لغة ما، ومعنى الجملة ليس مجموع معاني الكلمات المفردة التي ترد فيها؛ إذ إن التغيير في البنية النحوية وعلاقات الكلمات ووظائفها ومواقعها من الترتيب من شأنه أن يبدل في المعنى (4). إن توظيف اللغة في مجال الكتابة الإبداعية لا يتعارض والحركية التي تطبع سلوك النص وقدرته على تحقيق مرجعيته، وتوسيع مجال انتمائه وطرح مسألة استقلاليتها من عدمها هو، في نهاية المطاف، محاولةً لجس نبض نصوص لها جمالياتها القابعة في نظام لغتها،

(1) تزييفتان تودوروف: اللغة والخطاب الأدبي، تر: سعيد الغانمي، ط 01، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993، ص42.

(2) ينظر: سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي (النص والقارئ)، ص25.

(3) المرجع السابق نفسه، ص134.

(4) ينظر: ممدوح عبد الرحمن الرمالي: العربية والوظائف النحوية، د/ط، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1996، ص220.

وطرائق صوغها وبنائها، ويضبط توظيف اللغة فيها سياقاً نحوي يمثّل، في معنى من معانيه، شبكة علاقات تحكم بناء الوحدات اللغوية داخل النص، وفيها تقوم كل علاقة بمهمة وظيفية تساعد على بيان الدلالة⁽¹⁾.

لذا، تتحول اللغة في الخطاب الأدبي بوصفه ملفوظاً منظوراً إليه من جهة التواصل إلى وسيلة لبعث النضال من أجل الأرض قبل أن تكون غاية في حدّ ذاتها، وهذه رؤيا أدبية أساسها الالتزام بقضية الوطن الجريح تفكيراً وإبداعاً وممارسة، صارت فيه اللغة واسطة بين مواضيع شتى يلم جزئياتها النص. وهذا فهمٌ "تكون مهمته استعادة اللغة التي يفقر عليها الرمز، أثناء محاولته التوسط بين عالم النص الذي هو بيئته، وعالم الذات الذي يمثّل بالنسبة إليه الشرط الوجودي للعودة إلى التمثلات الأصلية في عالم ما قبل النص"⁽²⁾، ومحاولةً لاختراق وضعيات تشكل مفاهيمه قبل ولادته المستعصية.

من هنا نخلص إلى أن تلقي اللغة وتدوقها وتحولها في حاضر الخطاب الأدبي إلى ممارسة إبداعية يمكن استيعابها في حاضر الكتابة بواسطة طريق اللغة؛ بما هي انعكاس على مساحة النص الورقية لتزيده سعة في معانيه وخصوصية في أسلوبه، واكتساب الفرد المبدع للغة تمهيد لعلاقة تربط نظامها بطرائق استعمالها، بشكل يظهر ما حبا الله - عز وجل- الإنسان به من ملكات، فإذا الكلمات جمل و الجمل فقرات والفقرات نص والنص إبداع من نوع آخر.

دور المنابع اللغوية في تشكّل الخطاب الشعري المعاصر:

تنأى اللغة في إحالتها على ذاتها عن وضعها السكوني كما هو عليه في نظامها القار؛ إذ تستنفر طاقتها الكامنة في مستويات متضاهرة تتواءم وطبيعة النص وآليات اشتغاله؛ فيقال لغة السرد، لغة الأدب، لغة الصحافة، وغيرها من الأمثلة التي جرت بها عادة المستعملين في حياتهم، ولا فكاك حينئذ من أن يتمخض عن هذا التعدد، إثراءً له وإسهاماً فيه، جملةً أساليب متنوعة، تسعى اللغة من خلالها "إلى فتح العالم الذي يحمل كل

(1) ينظر: عبد القادر عبد الجليل: الأسلوبية وثلاثية الدوائر العروضية، ص218.

(2) عمارة ناصر: اللغة والتأويل، ص35.

روابط الانتماء وغلقه على مستوى الكتابة، حتى يستجمع هذا العالم معناه، ثم تضمين هذا المعنى حقيقة ما؛ فالمعنى الذي تدفعه اللغة عبر تعبيريتها هو معنى حاضر بنفسه يتمظهر ليقول شيئاً ما، هذا الشيء الكامن يقوله صمت اللغة" (1)، بما هي ظاهرة معقدة يتميز بها الكائن البشري عن سائر المخلوقات الأخرى؛ فهي "تمثل نظاماً رمزياً اصطلاحياً للدلالة والتعبير والتواصل" (2)، والسلوك اللغوي، بهذا المعنى، نتاج عمليات التعلم التي تحدث جراء تفاعل الفرد مع بيئته الاجتماعية وتنشئتها وأساليب تربيته وتوجيهها. ويرتبط اكتساب المرء للغة الأم منذ طفولته "بإدراك العالم حوله من خلالها ومهما كان العالم حوله غنياً؛ فهو لن يدرك إلا الظواهر التي لها مسميات في هذه اللغة التي تصنف له ما يبصره ويسمعه [...] وتفرض عليه تصورات معينة لما حوله" (3)، تسهم الجماعة في إبقائها حية بوساطة اللغة، فهي تحفظ لهم بعض الأحداث التي لا يستطيعون تثبيتها في الذاكرة الجماعية؛ ليظل معنى اللغة خلال الحياة "عميق الجذور في العمل ومعبراً عن الإحساس، أما الوظائف الإدراكية للغة واستعمالها وسيلة لتحليل الصورة المدركة للعالم الذي حولنا وتركيبها ووسيلة لتكوين الفكر؛ فهذه تثبت ببطء مع التبادل اللغوي بين الفرد والجماعة" (4)، الذي تتوسع دوائر امتداده كلما ارتقينا في المراحل المعرفية الأكثر تجريداً، "بانتقال الطفل من الأنا غير الواعية بذاتها، إلى الفهم المتبادل للشخصية، ومن اللاتمايز الفوضوي في الجماعة إلى التمايز القائم على التنظيم المنضبط تنتقل من اللغة الأنوية إلى اللغة الاجتماعية" (2)، في تأكيد على تحول وظيفتها من نطاق الفرد إلى نطاق المجتمع، وما تتطلبه من عمليات تواصل بدونها لا تحقق اللغة دورها المنوط بها الذي يرمي إلى إعادة بناء ذكريات الفرد والحفاظ على جانب واسع من خبرته التي يكونها عن طريق تأشيرها اللفظي الخاص؛ فاللغة إذن أداة للاتصال، وظاهرة اجتماعية لعلاقتها بوجود الإنسان ذاته، حين يسعى للحفاظ على بقائه "متكلماً، فهو على الدوام بحاجة ماسة إلى لغته كي ينتقل من وجوده إنساناً إلى وجوده متكلماً، فحياته

(1) عمارة ناصر: اللغة والتأويل، ص55.

(2) رافع النصير الزغول، عماد عبد الرحيم الزغول: علم النفس المعرفي، ص219.

(3) كريم زكي حسام الدين: الزمان الدلالي، ط2، دار غريب للطباعة، القاهرة، مصر، 2001، ص117.

(4) م. م. لويس: اللغة في المجتمع، تر: تمام حسان، د/ ط، عالم الكتب، القاهرة، مصر، 2003، ص38.

(5) عمر أوكان: اللغة والخطاب، ص24.

رهن بما يقول، فكأنه نطفة لغوية مخلقة وغير مخلقة، لا يستوي خلقا كمالاته إلا في رحم اللغة التي يبديع فيها" (1)؛ إنها بما تمثله من نظم وأساليب وأهمية "عبقرية اللغة؛ وهي مجموعة الصفات والخصائص التي تتميز بها لغة عن أخرى، وتتحدد هذه الصفات في نحو اللغة وصرفها وتركيب عباراتها وتطور نظامها الصرفي [...] وهناك أيضا الناحية الفنية؛ وهي ما يمكن أن يسمى ذوق اللغة، وبهذه الإمكانيات تعيش اللغة في المجتمع، وتتفاعل معه وتؤدي حاجته الفكرية والروحية" (2). ولما كان النص الشعري المعاصر نظاما لسانيا؛ فإنه يبنني على مفاهيم وتصورات وأفكار لها إحالات مرجعية، بعبارة أخرى؛ يتسامى هذا النص بلغته عن اللغة العادية، بفضل علائقه الداخلية؛ التي تتفاعل وفق آليات اشتغال خاصة، وعلائق خارجية تشدّ النص إلى شروط تداولية مميزة، تجعل من عملية نقل النص من مستواه الفكري إلى مستواه الخطي الملموس مبنيا على ما يصطلح عليه أسلوبيا بالإضافة (Addition)؛ التي هي "حقيقة واقعة لا بد للقارئ أن يتعامل معها، بما تحمل من تأثيرات وجدانية تتجسد في الشحن العاطفي، الذي تحمله اللغة في ثناياها، وهو عنصر لا يمكن إغفاله أو إهماله؛ لأنه عنصر يحقق الجذب للنص والالتفات إليه والاندهاش به" (3).

المصادر التمثيلية: يمكن التمثيل لفحوى المضمون النظري بالمصادر الآتية:

سميح القاسم: أحبك كما يشتهي الموت

سميح القاسم: القصائد

سلمى خضري الجيوسي: العودة من النبع الحالم

محمود درويش: ذاكرة النسيان

(1) عبد الغني بارة: الهرميناوطيقا والفلسفة (نحو مشروع عقل تأويلي)، ص431.

(2) عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، ط01، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ص279.

(3) موسى ربابعة: الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، ط01، دار الكندي للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، 2003، ص24.